

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦١ - سُورَةُ الصَّفِّ

وتسمى سورة (الحواريين) . وهى مدنية . ولا عبرة بقول إنها مكية ، لأن آياتها المحرّضة على القتال تردّه ، لأنه لم يشرع الجهاد إلا فى المدينة . وآياتها أربع عشرة آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)
« سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » أى أذعن لله
كل خلقه العلوى والسفلى ، وانقاد لتسخيره ، ودل على ألوهيته وربوبيته . وتقدم بيانه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ)

[٣] (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ » قال القاشانى : من لوازم الإيمان
الحقيقى الصدق وثبات العزيمة . إذ خلوص الفطرة عن شوائب النشأة يقتضيها . وقوله
(لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟) يحتمل الكذب ، وخلف الوعد . فمن ادعى الإيمان وجب
عليه الاجتناب عنهما بحكم الإيمان ، وإلا فلا حقيقة لإيمانه . ولهذا قال :

« كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » لأن الكذب ينافي المروءة التى هى
من مبادئ الإيمان ، فضلاً عن كماله . إذ الإيمان الأصلى هو الرجوع إلى الفطرة الأولى ،
والدين القيم . وهى تستلزم أجnas الفضائل بجميع أنواعها ، التى أقل درجاتها العفة المقتضية
للمروءة ، والكاذب لا مروءة له ، فلا إيمان له حقيقة . وإنما قلنا : لا مروءة له ، لأن النطق
هو الإخبار المفيد للغير معنى ، المدلول عليه باللفظ . والإنسان خاصته التى تميزه عن غيره ، هى
النطق ، فإذا لم يطابق الإخبار ، لم تحصل فائدة النطق ، فخرج صاحبه عن الإنسانية ، وقد
أفاد ما لم يطابق من اعتقاد وقوع غير الواقع ، فدخل فى حد الشيطنة ، فاستحق المقت الكبير

عند الله ، بإضاعة استعداده ، واكتساب ما ينافيه من أصداده . وكذا الخلف ، لأنه قريب من الكذب ، ولأن صدق العزم وثباته من لوازم الشجاعة التي هي إحدى الفضائل اللازمة لسلامة الفطرة ، وأول درجاتها . فإذا انتفت الإيغال الأصلية بانتفاء ملزومه ، فثبت المقت من الله . انتهى .

لطيفة :

قال الزمخشري : هذا من أفصح كلام وأبلغه في معناه . قصد في (كَبَر) التعجب من غير لفظه . ومعنى التعجب تعظيم الأمر في قلوب السامعين . وأسند إلى (أَنْ تَقُولُوا) ، ونصب (مَقْتًا) على تفسيره ، دلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص ، لا شوب فيه ، لفرط تمكن المقت منه . واختير لفظ (المقت) لأنه أشد البغض وأبلغه ، ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيراً ، حتى جعل أشده وأخشه . و (عند الله) أبلغ من ذلك ، لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله ، فقد تم كبره وشدته .

قال الناصر : وزائد على هذه الوجوه الأربعة وجه خامس ، وهو تكراره لقوله : (ما لا تفعلون) وهو لفظ واحد ، في كلام واحد . ومن فوائد التكرار التهويل والإعظام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)

« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ » قال القاشاني : لأن بذل النفس في سبيل الله لا يكون إلا عند خلوص النفس في محبة الله ، إذ المرء إنما يحب كل ما يحب من دون الله لنفسه . فأصل الشرك ومحبة الأنداد ، محبة النفس . فإذا سمح بالنفس ، كان غير محب لنفسه ، وإذا لم يحب نفسه فبالضرورة لم يحب شيئاً من الدنيا . وإذا كان بذله للنفس في الله وفي سبيله لا للنفس ، كما قال - ترك الدنيا للدنيا - كانت

حبة الله في قلبه راجحة على حبة كل شيء ، فكان من الذين قال فيهم : ^(١) (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدَّ حُبًّا لِلَّهِ) وإذا كانوا كذلك يلزم حبة الله إياهم ، لقوله : ^(٢) (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ وَ) انتهى .

تنبيهات :

الأول - في ذكر هذه الآية عقيب مقت المخلف دليل على أن المقت قد تعلق بقول الذين وعدوا الثبات في قتال الكفار ، فلم يفوا . انتهى .

وأيدته الناصر من الوجهة البيانية بأن الأول كالبسطة العامة لهذه القصة الخاصة ، كقوله تعالى ^(٣) : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِرُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) فاللهي العام ورد أولاً . والمقصود اندراج هذا الخاص فيه ، كما تقول للمفتري جرماً معيناً : لاتفعل ما يلصق العار بك ، ولا تشاتم زيداً . وفائدة مثل هذا النظم ، النهي عن الشيء الواحد مرتين ، مندرجاً في العموم ، ومفرداً بالخصوص . وهو أولى من النهي عنه على الخصوص مرتين فإن ذلك معدود في حيز التكرار ، وهذا يتكرر مع ما في التعميم من التعظيم والتهويل . انتهى

الثاني - في (الإكيل) : قال إلكيا المراسي ، يحتاج بقوله تعالى : (لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبِرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) في وجوب الوفاء بالندر ، ونذر اللجاج . قال غيره : والوعود . انتهى .

وقال ابن كثير : هو إنكار على من يعد وعداً ، أو يقول قولاً ، لا يفي به . ولهذا استدل بهذه الآية السكرية من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً ، سواء ترتب عليه عزم الموعود أم لا . واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت في الصحيحين ^(٤) :

(١) [٢ / البقرة / ١٦٥] . (٢) [٥ / المائدة / ٥٤] . (٣) [٤٩ / الحجرات / ٢١] .

(٤) أخرجه البخاري في : ٢ - كتاب الإيمان ، ٢٤ - باب علامة المنافق ، حديث

رقم ٣١ ، عن أبي هريرة .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٠٧ (طبعنا) .

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : آية المنافق ثلاث : إذا وعد أخلف ، وإذا حدث كذب ، وإذا أؤتمن خان. ولهذا أكد الله تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) .

وقد روى الإمام أحمد^(١) وأبو داود عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا صبيّ ، فذهبت لأخرج لألعب ، فقالت أمي : يا عبد الله ! تعال أعطك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما أردت أن تعطيه ؟ قالت : تمرّاً . فقال : أما إنك لو لم تفعل ، كُتبت عليك كذبة .

وذهب الإمام مالك رحمه الله إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزم على الموعود ، وجب الوفاء به . كما لو قال لغيره : تزوج ولك عليّ كل يوم كذا . فتزوج . وجب عليه أن يعطيه مادام كذلك ، لأنه تعلق به حق آدمي .

وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقاً ، وحلوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم ، فلما فرض ، نسكل عنه بعضهم ، كقوله تعالى^(٢) (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا فَبَلَاءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا) . وقال تعالى^(٣) (وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّخْصِمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ..) الآية ، وهكذا هذه الآية معناها كما قال ابن عباس : كان ناس من المؤمنين ، قبل أن يفرض الجهاد ، يقولون : لوددنا أن الله عز وجل

أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤٤٧ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٢) [٤ / النساء / ٧٧] . (٣) [٤٧ / محمد / ٢٠] .

دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ، ولم يقرؤا به . فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فأنزل الله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ) . وقيل : كان المسلمون يقولون : لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله لأتيناها ، ولو ذهب فيه أنفسنا وأموالنا ، فلما كان يوم أحد ، تولوا عن النبي ﷺ ، حتى شج وكسرت رباعيته ، فأنزل الله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ) روى ذلك عن مقاتل بن حيان . وقيل : نزل هذا توبيخاً لقوم من المنافقين كانوا يعدون المؤمنين النصر وهم كاذبون . يقولون : لو خرجتم خرجنا معكم ، وكنا في نصركم ، وفي وفي . . . روى ذلك عن ابن زيد . وكل الروى هنا مما تشمله الآية .

وقد روى الإمام أحمد^(١) عن عبد الله بن سلام قال : تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله ﷺ فيسأله : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ فلم يقم منا أحد ، فأرسل إلينا رسول الله ﷺ رجلاً فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة - يعنى سورة الصف - كلها . ولفظ ابن أبي حاتم عن عبد الله ابن سلام : أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : لو أرسلنا إلى رسول الله نسأله عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ؛ فلم يذهب إليه أحد منا ، وهبنا أن نسأله عن ذلك . قال : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك نفر رجلاً رجلاً ، حتى جمعهم ، ونزلت فيهم هذه السورة - الصف - قال عبد الله بن سلام : فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها . وفي رواية ابن أبي حاتم هذه فائدة جليمة : وهى أن قول الصحابي نزلت هذه السورة ، بمعنى قرئت في الحادثة ، كما يَدْنُوهُ الرواية قبله . والروايات يفسر بعضها بعضاً . وقد نهىنا على ذلك مراراً .

الثالث - فى (الإكليل) فى قوله (كَأَنَّهُمْ مُّبْنِينَ مَّرْصُوصِينَ) : استحباب قيام المجاهدين فى القتال صفوفاً كصفوف الصلاة . وأنه يستحب سد الفرج والخلل فى الصفوف ،

(١) أخرجه فى السند بالصفحة رقم ٤٥٢ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

وإتمام صف الأول فالأول ، وتسوية الصفوف قدماً بقدم ، لا يتقدم بعض على بعض فيها .
قال ابن أبي الفرس : واستدل بها بمضهم على أن قتال الرجال أفضل من قتال الفرسان .
لأن التراص إنما يمكن منهم . قال : وهو ممنوع . انتهى .
وفي التشبيه وجهان آخران :

أحدهما - أن يكون المراد الثبات ورسوخ الأقدام في الموقف ، تنبيهاً على أن المنزلزل القدم ،
والمضطرب في الموقف - دع من يعزم على الفرار - ممن يحقته الله تعالى ، ولا تناله محبته .
ثانيهما - أن يكون المعنى به اجتماع الكلمة ، والاتفاق على تسوية الشأن مع العدو ،
حتى يكونوا في الاتحاد وموالاته بعضهم بعضاً كالبنيان المرصوص . وقد أشار لهُذين الوجهين
الرازى . وها أقرب من الأول ، لتقويتيهما لمعنى طليعة السورة ، من الثبات على الوعد والوفاء
به ، والعتب على من يخلف فيه ، كما تقدم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يٰقَوْمِ لِمَ تُوذُّوَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ، فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)
« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يٰقَوْمِ لِمَ تُوذُّوَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ »
أي لم تصلون إلى الأذى بالمخالفة والعصيان لما أمركم به ، وأنتم تعلمون علم اليقين صدق فيما
جئتكم به من الرسالة ، لما شاهدتم من الآيات البينات ؟ ومقتضى علمكم ذلك ، تعظيمي
وإطاعتي ، لأن من عرف الله وعظمته ، عظم رسوله ، لأن تعظيمه في تعظيم رسوله .

قال ابن كثير : وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم ،
وأمر له بالصبر . ولهذا قال صلوات الله عليه ^(١) : رحمة الله على موسى ! لقد أودى بأكثر

(١) أخرى البخاري في : ٥٧ - كتاب فرض الخمس ، ١٩ - باب ما كان النبي صلى

الله عليه وسلم يعطى المؤلفة قلوبهم ، حديث رقم ١٤٨٦ ، عن عبد الله بن مسعود .

من هذا فصبر . وفيه نهى للمؤمنين أن يوصلوا له ، صلوات الله عليه أذى ، كما قال تعالى ^(١) :
 (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوُا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ
 عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا) انتهى .

وقال أبو السعود : هذا كلام مستأنف ، مقرر لما قبله من شناعة ترك القتال . و (إذ)
 منصوب على الفعولية بمضمر . خوطب به النبي ﷺ بطريق التلوين . أى واذا كر لهؤلاء المعرضين
 عن القتال ، وقت قول موسى لبنى إسرائيل حين نذبهم إلى قتال الجبارة ، بقوله ^(٢) (يَقُومِ
 ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا
 خَاسِرِينَ) فلم يمتثلوا أمره ، وعصوه أشد عصيان ، حيث قالوا ^(٣) : (يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا
 جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ) إلى
 قوله ^(٤) (فَادْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَمِيدُونَ) وأصروا على ذلك وآذوه ، عليه
 الصلاة والسلام ، كل الأذية . هذا هو الذى تقتضيه جزالة النظم الكريم ، ويرتضيه الذوق
 السليم . وأما ما قيل بصدد بيان أسباب الأذية ، من أنهم كانوا يؤذونه بأنواع الأذى ، من
 انتقاصه وعيبه فى نفسه وعصيانه فيما تعود إليهم منافعهم ، وعبادتهم البقر ، وطلبهم رؤية الله
 جهرة - فما لاتعلق له بالمقام . انتهى ملخصاً . وملخصه : أن المقام يعين نوع الأذية ويخصصها ،
 والقريفة إحدى مخصصات العام ، إلا أن أخذها عامة أعظم فى التسلية وأولى ، وقوفاً مع عموم
 اللفظ الكريم .

« فَلَمَّا زَاغُوا » أى عن مقتضى علمهم لفرط الهوى ، وحب الدنيا « أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ »
 أى عن طريق الهدى ، وحجبهم عن نور الكمال ، لصرف اختيارهم نحو النفى والضلال .
 « وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » أى الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق ، المصيرين على
 الغواية .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٩] . (٢) [٥ / المائدة / ٢١] . (٣) [٥ / المائدة / ٢٢]

(٤) [٥ / المائدة / ٢٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)

« وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ » أى التى أنزلت على موسى ، وذلك مما يدعو إلى تصديقه عليه السلام . « وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ » أى الدلالات التى آتاها الله إياه ، حججاً على نبوته ، « قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ » أى بين .

والإشارة إلى ما جاء به أو إليه ، عليه الصلاة والسلام ، وتسميته سحراً مبالغة . يريد عليه السلام : أن ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً ، ممن تقدم وتأخر .

تنبيهات :

الأول - نقل الرازى وغيره مصداق هذه الآية من الإنجيل الموجود بين أيديهم .

وذلك فى إنجيل يوحنا ، فى الباب الرابع عشر ، هكذا :

إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الأب فيعطىكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد - كما فى النسخة المطبوعة سنة ١٨٢١ و ١٨٣١ و ١٨٣٣ بمدينة لندن - وفارقليط يونانية ، ولفظها الأصل (بيركلوط) ، ومعناه : محمد أو أحمد ، كما بينه صاحب (إظهار الحق) .

وذكرت جريدة المؤيد عدد (٣٢٨٤) صفحة (٢) تحت عنوان (لا يعدم الإسلام

منصفاً) :

وقال مسيو مارسيه من (مدرسة اللغات الشرقية) ما يأتى :

إن محمداً هو مؤسس الدين الإسلامى ، واسم محمد جاء من مادة حمد . ومن غريب الاتفاق

أن نصارى العرب كانوا يستعملون اسماً من نفس المادة يقرب في المعنى من محمد ، وهو أحمد ، لتسمية البراكلية به . ومعنى أحمد صاحب الحمد ، وهذا مادعا علماء الدين الإسلامى أن يثبتوا بأن كتب المسيحيين قد بشرت بمجىء النبي محمد . وقد أشار القرآن نفسه إلى هذا بقوله عن المسيح : (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ وَأَحْمَدُ) .

وقد قال اسبرانجيه : إن هذه الآية تشير إشارة خاصة إلى عبارة (إنجيل يوحنا) حيث وعد المسيح تلامذته ببعثة صاحب هذا الاسم . انتهى بالحرف .

وأما (إنجيل برنابا) ففيه العبارات الصريحة المتكررة ، بل الفصول الإضافية الذبول ، التي يذكر فيها اسم محمد في عرضها ذكراً صريحاً ، ويقول إنه رسول الله .

وقد نقل الشيخ محمد بيرم عن رحلة انكليزى أنه رأى في دار الكتب البابوية في الفاتيكان نسخة من الإنجيل مكتوبة بالقلم الجيرى قبل بعثة النبي ﷺ ، وفيها يقول المسيح : (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ وَأَحْمَدُ) وذلك موافق لنص القرآن الكريم بالحرف . وقد بدل الرهبان نقط (الفارقليط) في المطبوعات الأخيرة (المعزى) .

قال بعضهم : ولا عجب من هذه التحريفات المتجددة بتجدد الطبعات ، فإنها سجيعة القوم في كتبهم المقدسة .

* سجيعةٌ تلك فيهم غير محدثة *

(١)

الثالث - قال الإمام ابن القيم في (جلاء الأفهام) : الفرق بين محمد وأحمد من وجهين : أحدهما - أن محمداً هو الحمود حمداً بعد حمد ، فهو دالٌّ على كثرة حمد الحامدين له ، وذلك يستلزم كثرة موجبات الحمد فيه . و (أحمد) أفعل تفضيل من الحمد ، يدل على أن الحمد الذي

(١) ملاحظة : ترك المؤلف هنا رحمه الله بياضاً قدره صفحة وثلاث الصفحة ، وكأن هذا البياض خصص للتنبيه الثانى ، وقد انتقل إلى الدار الآخرة رحمه الله ، دون أن يعلمه .

يستحقه أفضل مما يستحقه غيره . فحمد زيادة حمد في الكمية ، وأحمد زيادة في الكيفية ، فيحمد أكثر حمد ، وأفضل حمد حمده البشر .

والوجه الثاني - أن محمداً هو المحمود حمداً متكرراً كما تقدم ، وأحمد هو الذي حمده لربه أفضل من حمد الحامدين غيره . فدل أحد الاسمين - وهو محمد - كونه محموداً . ودل الاسم الثاني - وهو أحمد - على كونه أحمد الحامدين لربه . وهذا هو القياس ، فإن أفعل التفضيل والتعجب عند جماعة البصريين لا يُبنيان إلا من فعل الفاعل ، لا من فعل المفعول ، ذهاباً إلى أنهما إنما يصاغان من الفعل اللازم لا المتعدى . ونازعهم آخرون وجوزوا بناءهما من الفعل الواقع على المفعول ، لقول العرب : (ما أشغله بالشئ) .

إلى أن قال : والمقصود أنه ﷺ سمي محمداً وأحمد . لأنه يحمد أكثر ما يُحمد غيره ، وأفضل مما يحمد غيره . فالاسمان واقمان على المفعول ، وهذا هو المختار . وذلك أبلغ في مدحه ، وأتم معنى . ولو أريد به اسم الفاعل لسمى (الحماد) وهو كثير الحمد ، كما سمي محمداً ، وهو المحمود كثيراً . فإنه ﷺ كان أكثر الخلق حمداً لربه . فلو كان اسمه باعتبار الفاعل ، لكان الأوّل أن يسمّى حماداً ، كما أن اسم أمته الحمادون . وأيضاً فإن الاسمين إنما اشتقا من أخلاقه وخصائله المحمودة التي لأجلها استحق أن يسمّى محمداً وأحمد ، فهو الذي يحمده أهل الدنيا وأهل الآخرة ، ويحمده أهل السموات والأرض . فلكثرة خصائله التي تفوت عدّ العاديين سمي باسمين من أسماء الحمد ، يقتضيان التفضيل والزيادة في القدر والصفة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ،
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ» أي : لأحد أظلم وأشدّ عدواناً ممن يدعى إلى الإسلام الظاهر حقيقته ، المسعد له في الدارين ، فيستبدل إجابته

بافتراء الكذب ، واختلاقه على الله . وذلك قوله لكلامه تعالى (سحر) ولرسوله (ساحر) وهذه الآية إما مستأنفة لتحقيق رسالة النبي ﷺ ، طليعة للآيات بعدها ، وإما متممة لما قبلها ، لتقبيح ما بهت به الإسرائيليون عيسى عليه السلام ، مع الإشارة بعمومها إلى ذم كل من كان على شاكلتهم . ولا يقال (الإسلام) يؤيد الأول ، لأنه عنوان الملة الحنيفية ، لأنه قد يراد به معناه اللغوي . وقد كثر ذلك في آيات شتى . نعم الأقرب الأول . واحتمال مثل الآية لهذين الوجهين ، من بدائع التنزيل .

«وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» أى : الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بما أنزل من الحق .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

«يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» قال ابن جرير^(١) . أى يريد هؤلاء القائلون لمحمد ﷺ هذا ساحر ، ليطلوا الحق الذى جاء به بقولهم إنه ساحر ، وما جاء به سحر ، والله معلى الحق ، ومظهر دينه ، وناصر رسوله على من عاداه ، فذلك إتمام نوره . انتهى .

ف (نور الله) استعارة تصريحية لدينه ، و (الإطفاء) ترشيح ، أو التركيب استعارة تمثيلية . مثلت حالهم فى اجتهدهم فى إبطال الحق ، بحال من ينفخ فى نور الشمس بفيه ليطفئه ، تهكماً وسخرية بهم ، كما يقول الناس : هو يطين عين الشمس . والثانى أبلغ وألطف ، وهو ختار الزمخشري .

وفى لام (ليطفئوا) مذاهب للنحلة مقررة فى المطولات ، ومن أشهرها أنها مزيدة لتأكيد معنى الإرادة ، لما فى لام العلة من الإشعار بالإرادة والقصد .

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

«هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ» يعنى محمداً ﷺ «بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» قال ابن جرير^(١): أى على كل دين سواه. وذلك عند نزول عيسى بن مريم، وحين تصير الملة واحدة، فلا يكون دين غير الإسلام.

وقال الزمخشري: أى ليعلم به على جميع الأديان المخالفة له. ولعمري لقد فعل، فما بقي دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام. وتقدم في آخر سورة الفتح في مثل هذه الآية تحقيق آخر، فليراجع.

«وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» أى لما فيه من محض التوحيد، وإبطال الشرك.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَارِعِ تُنَجِّيَكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

[١١] (تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

[١٢] (يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ، ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[١٣] (وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا، نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ، وَبَشِيرِ الْمُؤْمِنِينَ)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَارِعِ تُنَجِّيَكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية).

يَا لِلّٰهِ وَرَسُولِهِ «أَيُّ إِيمَانًا يَقِينِيًّا لَا يَشُوْبُهُ أَذْنَى شَكٍّ» وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «أَيُّ مَنْ أَهْلُ الْعِلْمِ . أَوْ أَنَّهُ خَيْرٌ . فَإِنْ قِيلَ : إِنْ ذَلِكَ خَيْرٌ بِنَفْسِهِ عِلْمُوا أَوَّلًا ، وَأَيْضًا أَنْ عِلْمُهُمْ مُحَقَّقٌ ، إِذَا خُطِّبَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ . فَالْجَوَابُ مَا قَالَهُ النَّاصِرُ : أَنَّ الشَّرْطَ لَيْسَ عَلَى حَقِيقَتِهِ ، بَلْ هُوَ مَنْ وَادَى قَوْلُهُ تَعَالَى ^(١) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) وَالْمَقْصُودُ بِهَذَا الشَّرْطِ التَّنْبِيْهُ عَلَى الْمَعْنَى الَّتِي يَقْتَضِي الْاِمْتِثَالَ ، وَإِلْهَابُ الْحِمَاةِ لِلطَّاعَةِ ، كَمَا تَقُولُ لِمَنْ تَأْمُرُهُ بِالْاِتِّصَافِ مِنْ عَدُوِّهِ : إِنْ كُنْتَ حَرًّا فَانْتَصِرْ . تَرِيدُ أَنْ تُثِيرَ مِنْهُ حِمَاةَ الْاِتِّصَافِ لِغَيْرِهِ . انْتَهَى وَقَوْلُهُ تَعَالَى : «يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» جَوَابٌ لِلأَمْرِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ بِلَفْظِ الْخَبَرِ ، أَوْ لَشَرْطِ أَوْ اسْتِفْهَامٍ ، دَلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ تَقْدِيرُهُ : إِنْ تَوَمَّنُوا وَتَجَاهَدُوا . أَوْ هَلْ تَقْبَلُونَ أَنْ أَدْلِكُمْ يَغْفِرْ لَكُمْ «وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ» أَيْ بِسَاتِينَ إِقَامَةٍ لَا طَعْنَ عَنْهَا «ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» أَيْ النِّجَاءُ الْعَظِيمُ مِنْ نِكَالِ الْآخِرَةِ وَأَهْوَالِهَا ، «وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ» أَيْ عَاجِلٌ . وَهُوَ فَتْحُ مَكَّةَ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السُّورَةَ نَزَلَتْ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ بِقَلِيلٍ . وَكَانَ الْقَصْدُ مِنْهَا تَشْجِيعُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِ مُحَارِبِيهِمْ ، وَالثَّبَاتِ أَمَامَهُ ، وَالتَّحْذِيرِ عَنِ الزَّيْغِ عَنْ ذَلِكَ ، وَالتَّرْغِيبِ فِي السَّخَاوَةِ بِبَذْلِ الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ ، فِي سَبِيلِ الْحَقِّ ، لِإِعْلَاءِ شَأْنِهِ ، وَإِزْهَاقِ الْبَاطِلِ .

و (أُخْرَى) مَفْعُولٌ لِمَقْدَرٍ مَعْطُوفٌ عَلَى الْجَوَابَيْنِ قَبْلَهُ ، وَهُوَ جَوَابُ ثَالِثٍ . أَيْ وَيُؤْتِيَكُمْ أُخْرَى أَوْ صِفَةً لِمَبْتَدَأٍ مَقْدَرٌ ، وَخَبَرُهُ مَحْذُوفٌ ، وَهُوَ (لَكُمْ) . أَيْ وَلَكُمْ إِلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْمَذْكُورَةِ ، نِعْمَةٌ أُخْرَى عَاجِلَةٌ مَحْبُوبَةٌ ، وَهِيَ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ لَكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ ، وَفَتْحٌ قَرِيبٌ يَعْجَلُهُ لَكُمْ .

«وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» أَيْ بِنَصْرِهِ تَعَالَى لَهُمْ وَفَتْحِهِ . وَمَنْ مَنَعَ مِنَ النِّهَاةِ عَطْفَ الْإِنْشَاءِ

(١) [٢ / البقرة / ٢٧٨] .

على الخبر يقول (وَبَشِّرِ) معطوف على (تُوْمِنُونَ) ، لأنه بمعنى آمنوا . وضعف بأن المخاطب بـ (تُوْمِنُونَ) المؤمنين ، وبـ (بَشِّرِ) النبي ﷺ . ثم إن (تُوْمِنُونَ) بيان لما قبله ، و (بَشِّرِ) لا يصلح لذلك . وأجيب بأنه لا مانع من العطف على الجواب ، ماهو زيادة عليه إذا ناسبه . وهذا أولى الوجوه عند صاحب (الكشف) ، كتقدير : أبشر يا محمد ، و (بَشِّرِ) ، وتقدير (قل) قبل (يَأَيُّهَا) . وجعل (بَشِّرِ) أمراً بمعنى الخبر ، كما في قوله : أبطئ أو أسرعى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ، فَأَمَّنتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتَ طَائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ)

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ » أى أنصار الحق الذى أنزله وأمر به ، « كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ؟ » أى من معى وجندى متوجهاً إلى نصره الله ، « قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ » أى ننصر دينه ، وما أمر به ، وندعو إليه ، ونضحي لأجله حياتنا ، « فَأَمَّنتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ » أى بعبسى عليه السلام ، ونهضت تدعو إلى ما بُعث به ، وتنتشر دعوته ، « وَكَفَرَتَ طَائِفَةٌ » أى برسالته والحق الذى معه ، « فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ » من اليهود والرومان الوثنيين ، « فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ » أى غالبين عليهم بالبراهين الواضحة ، والحجج الظاهرة ، والسلطة القاهرة . وفيه بشارة للمؤمنين بالتأييد الربانى لهم ، ما داموا متناصرين على الحق ، مجتمعين عليه ، غير متفرقين عنه ولا متخاذلين ، كما وقع لسلفهم . اتفقوا فملكوا ، وإلا فإذا تفرقوا هلكوا .

لطيفة :

ليس التشبيه على ظاهره، من تشبيه كون المؤمنين أنصار الله بقول عيسى، إذ لا وجه لتشبيه الكون بالقول، بل هو مؤول بجعل التشبيه باعتبار المعنى، إما على تقدير: قل لهم، كما قال عيسى، لظهوره فيه، وانصباب الكلام إليه، أو تقدير: كونوا أنصار الله، كما كان الحواريون حين قال لهم عيسى: من أنصاري إلى الله؟

قال الشهاب: ف (ما) مصدرية، وهي مع صلتها ظرف. والأصل: ككون الحواريين أنصاراً وقت قول عيسى. ثم حذف المظروف، وأقيم ظرفه مقامه. وقد جعلت الآية من الاحتباك. والأصل: كونوا أنصار الله حين قال لكم النبي: من أنصاري إلى الله؟ كما كان الحواريون أنصار الله، حين قال لهم عيسى: من أنصاري إلى الله؟ فحذف من كل منهما، ما دل عليه المذكور في الآخر. وهو كلام حسن. انتهى.